مدينة الفنان

هل يمكن للفنان أن يبدع بينما هو يحتل بقعة خارج شبكة الاتصالات الفنية ولا يجرؤ على الانطلاق بعيدا الى البقاع النشطة ليتاح له المناخ ان يبدع حتى تلتحم الفنون في تجربته كلها؟ وما هي تجربة المؤسسات العربية في رعاية معارض الفنانين العرب خارج أوطانهم؟ وكيف يقيم سوق العمل الفني في المنطقة العربية؟ هذه الموضوعات تؤرق الفنان العراقي ضياء العزاوي ولا يتردد في «حمل السلم بالعرض».

تجربة الفنان ضياء العزاوي في الغرب

العزاوي فنان حداثي وتراثي معا، درس الآثار في جامعة بغداد ثم التحق بمعهد الفنون الجميلة. وهو فنان شمولي ينتمي الى جيل الفنانين العراقيين للستينات الذين أسسوا مجموعة «الرؤية الفذة» ثم «البعد الواحد» ليضم معاصريه. وحين سألته بأي نهج تأمل ان نتذكر ضياء العزاوي، أجاب، «لو تذكروني بأني تمكنت أن أقلب الطاولة فهذا عظيم. أهل المغرب لديهم مثل يقول (يحمل السلم بالعرض)، بمعنى انه يتعارض مع الموجود. والموجود في المنطقة العربية هو مجموعة هائلة من الفنانين، وبينهم شباب مبدعون لكن لغياب مؤسسات مهنية صحيحة ولغياب الدعم الاقتصادي الصحيح نجد ان بعضهم يضيعون حياتهم في شيء آخر».

الزميلة سونيا الكساندريان زارت الفنان العراقي في مرسمه الخاص في لندن وحاورته عن خلاصة تجربته الفنية والهموم التي لا تزال تشغله.

العزلة عن الثقافة العالمية

يشعر العزاوي بتأخر في عمله لخروجه متأخرا من العراق. وهو يتحدث بصراحة كبيرة عن ان المنطقة تعاني من عزلة كبيرة عن الثقافة العالمية، واننا لا علاقة لنا بما يحدث في الخارج. وان كانت بعض بلدان المغرب العربي، بالذات المغرب والجزائر، لها علاقة أساسية بفرنسا لأن فرنسا تعتبر الثقافة جزءا اساسيا في السياسة وهي تدعم مشاريع فنية حتى تدخل كطرف اساسي في عملية النشر.

وبعد خروجه من العراق توفرت له ظروف هائلة بالمعرفة لسهولة التنقل الى كل مكان وامكانية اقامة المعارض والاطلاع على المتاحف. وهو يعمل حاليا على سعة كبيرة بين النحت والسيراميك وغيرهما. ولم تعد له هموم بتنفيذ عمل معين، بل يريد أن يكون طرفا في تحقيق أشياء يحس بأنه بحاجة إليها. وهو يفسر التغيرات الكبيرة في مسيرته الفنية بأننا في بلداننا لا تتوفر لنا بشكل كامل الظروف التي تمكننا ان نحول الفنان من شخص

ضياء العزاوي في مرسمه (تصوير: حاتم عويضة)

حرفي يعرف يجمل اللوحة ليذهب أبعد من هذا ويغامر اكثر. لأن مناطقنا معزولة بشكل ما. ويقول حتى يأتي الوقت الذي نتمكن فيه ان نكون ذوي علاقة بما يحدث في أوروبا بشكل صحيح، ونختار ما يهمنا مما يحدث فيها يمكن ان نكون عندها على معرفة هائلة.

الطريق الى المعرفة

ردا على سؤالي عما اذا كانت الرسالة التي يريد ايصالها او نقلها من خلال هذا الموروث تتفق مع ما نحن عليه وفيه اليوم؟ يقول العزاوي «لا أعتقد ذلك، ولو ان المنطقة بوجه عام يمكن ان يوجد فيها ميل لاختصار الطريق الى المعرفة، وهو ما لا يمكن ان يحدث اطلاقا. فلا يمكن ان يُخلق في المجتمع ما يجعله في حالة قادرة على تطوير نفسه من الداخل ما لم تكن هناك مراحل تؤسس هذا النوع من العلاقة. فمثلا، لا يمكن ان نستغني عن التعليم كوسيلة لتطوير المعرفة. ولا يمكن ان نستغني عن الاعلام كوسيلة لتطوير المعرفة. ولهذا نجد ان المعرفة العامة بالفن في المنطقة بوجه عام هي معرفة أقرب الى جانب يستند الى علاقات اجتماعية، فلا يكفي زيارة معرض لعلاقة صداقة مع الفنان. وأحيانا نجد انها تقوم على المباهاة. فنجد البعض يقتني أعمالا فنية كقطع لتتلاءم مع أثاث غرفة الجلوس. كل هذه الظواهر هي نتيجة حتمية لنوع من الجهل بقيمة العمل الفني. في حين ان العمل الفني نفسه، كما هو الحال مع الشعر او الكتاب، يمثل درجة من المعرفة لتطوير الانسان وخلق شخص يغترف من مكونات هذه المعرفة التي تجعله في وضع يمكن ان يتمتع بالحياة بشكل عام، وهو في الوقت نفسه يكون امتلك المعرفة لإيجاد الطريق الأصح».

ويبدو ان العزاوي زاد اصرارا في مناصرته للفكرة القائلة ان الأعمال بالحرف العربي تنتمي الى حرفة الخطاط وليس للوحة الفنية، باعتبار ان اللوحة لها مكونات تختلف كليا عن مفهوم الخط والحرف العربي، واللوحة لا تتألف بالحرف العربي وحده، وهو ما يراه بأنه اعتقاد شائع حاليا <

سعدي يوسف

ويوجد سوق كبير لهذا النوع من الأعمال.
ثم يروي تجربة حصلت خلال عرض اعماله في واشنطن وكان الكتلوج المرافق للمعرض فيه كلام كثير عن استخدامه للحرف العربي بشكل كبير. وكان الناقد الذي حضر المعرض من صحيفة واشنطن بوست، وهو لا يعرف العربية ولا يعرف شيئا عن أعماله، تحدث عنها بطريقة مغايرة. ثم اعترف الناقد في رده بأنه لم يكن يعلم ان الاشكال في لوحاته هي حروف عربية وانه رأى فيها مجرد اشارات فانطلق في حديثه عنها من معرفته الأساسية بتاريخ الفن الحديث وبالتقنيات.

«القراءة لا تأتي من توفر الكتاب»

هذه العبارة يستعين بها الفنان ليدلل على ان الأمر الأساسي المطلوب في المنطقة العربية هو ان نمتلك طرق تعليم تقوم على تشجيع الطالب على اثارة اسئلة ومن مرحلة مبكرة جدا في حياة الفرد العربي. فممارسة قراءة الكتب منذ الصغر، وأحيانا حتى في الشارع، كما نجد في أوروبا، هي نتيجة لمنهجية أساسية يأخذون بها من مراحل مبكرة من حياة الفرد. ويرى الفنان ان مناهج التعليم في بلادنا لا تعطي الفن ولا الشعر أي أهمية ولا أي قيمة. في حين يتذكر انه وزملاءه الشباب في أيام الدراسة كانوا يقرأون المعلقات لكن كل هذا أصبح تاريخا.
(يتابع) صحيح انه هناك معارض فنية تقام في المنطقة، لكنها تبقى محصورة ضمن المظاهر، وهناك معارض دولية تقيمها وتمولها مؤسسات عندنا وهي من الناحية العملية لها وظيفة رسمية في جانب منها، ويستحيل ان نجد طوابير او حتى طابورا من عامة الناس يتوقون الى زيارة المعرض، وبالتالي حتى المعارض التي تقام في بلداننا لا تمت بأي صلة بالمجتمع، بل انها معزولة عن المجتمع أصلا.
ومع انه أمر جميل ان معرض أعمال فنانين من الشرق الأوسط الذي أقيم في المتحف البريطاني نجح اعلاميا، لكنه ما زال يشكل جزءا من التجربة. وما نحتاج اليه نحن هو شيء ابعد من هذا عمليا، فلو نُظم معرض عربي في (تيت غاليري)، مثلا، لكان هذا فعلا تحديا حقيقيا. لكن بدون دعم مالي لا يمكن ان تتاح هذه الفرص للفنانين العرب. ففي جميع متاحف العالم الجانب المالي لاقامة المعارض أمر تعنى به الشركات لكي تتمكن المتاحف من تنظيم المعارض. لأن المعارض تكلف مبالغ كبيرة جدا.
ويتساءل العزاوي، كم من المؤسسات عندنا قادرة على الدخول في مثل هذه التجربة. بالطبع رعاية شركة دبي القابضة للمعرض في المتحف البريطاني تعتبر تجربة جديدة وهي ربما حصلت لأنه صار لهم حضور ما أو لأنهم اعتقدوا بوجود أهمية لهذا الدعم.
ويرى الفنان ان من يريد إقامة معرض ذي علاقة بالمجتمع يفترض ان يطلع على تجارب كثيرة في المجتمعات ويدرس كيف ينظمون المعارض ويدرس الحضور فيها. ويقول ان هذا الجانب مفقود لدينا، وما يحصل عندنا هو انهم يسمونه بالمعرض الدولي، والفنانون الحاضرون معظمهم من انجلترا وأمريكا لكنهم لا يعلمون شيئا. وهم فنانون عاديون يوجدون في المنطقة لأن المنتجين للتجارب الفنية الجادة لا يرسلونها إلا الى مكان جاد، لان الأعمال الفنية الجادة تكلف مبالغ طائلة.

معهد العالم العربي في باريس

هذا المعهد يصفه الفنان العراقي بأنه النموذج البديع الذي ينبغي الأخذ به. فهذه المؤسسة تحصل على خمسين بالمائة من تمويلها من الحكومة الفرنسية وكذلك خمسين بالمائة من المنطقة العربية. ويرى العزاوي ان المنطقة بحاجة الى مؤسسات ذات قيمة مرتبطة بالغرب وتملك معرفة الغرب وتقنيات الغرب لكنها في الوقت نفسه تعمل ضمن منهج له علاقة بثقافتنا القومية.. وانه لو توفر جانب من رأس المال الضخم الموجود في المنطقة لاقامة مثل هذا المعهد في مراكش وبغداد والقاهرة والرياض، لانفتحت بوابة عظيمة لتطوير المعرفة. فالمعارض الكلاسيكية التي تقام في هذا المعهد معارض هائلة لتطوير المعرفة الموجودة. مثلا، نظموا معرضا عن العلوم

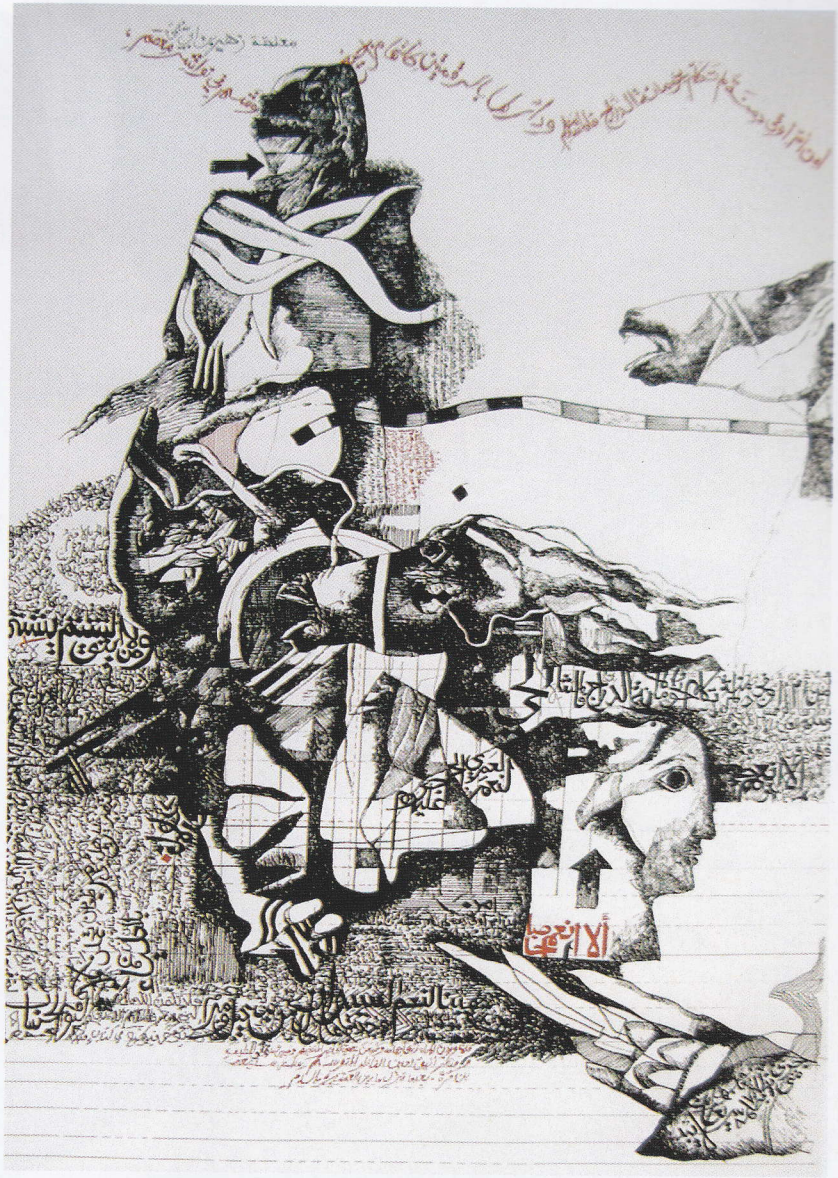

المخطوطات الإسلامية والعمل الفني

العزاوي يصف الجزء الأساسي في تجربته كلها بأنه الميل الى إيجاد ما يسميه محاولة لاستخدام الموروث الثقافي الوطني للمنطقة بحيث تعطي خصوصية للعمل الذي يحاول نشره في أماكن مختلفة من العالم. بمعنى ان اللوحة الفنية عند عرضها في واشنطن او باريس تبقى تعطي إشارة ما الى ان الفنان او صاحب اللوحة ينتمي الى منطقة الشرق الاوسط. بوجه عام. وكانت البدايات الاولى لعمله بالعودة الى التاريخ والموروث القديم للعراق، السومري والآشوري والاسلامي.
عن تجربته خارج الوطن العربي يقول الفنان انه وبعد انتقاله الى لندن اصبح المجال أمامه أوسع بكثير من خلال معرفته بالمكتبات الوطنية في العالم واطلاعه على المخطوطات فيها، فانصب اهتمامه على المخطوطات المنسوخة في الفترة الأساسية من الحضارة الاسلامية وهي الفترة العباسية، وهي المخطوطات التي لم تكن معروفة عمليا في المنطقة وبشكل يسمح للفنانين الشباب الاطلاع عليها، ولو ان المجالات المتوفرة باتت الآن أفضل من قبل. وهو الأمر الذي زاد من اصراره على الميل الى تنفيذ أعمال فنية ذات علاقة بالمنطقة بشكل عام.

قصيدة أدونيس

في الاسلام وصاحبه كتاب. وشاهدنا طوابير الزوار الى هذا المعرض. هذا المعهد يبحث في موضوعات مثيرة ومهمة لمعارضها حيث نظموا ايضا معرضا عن الآثار السورية. وفي الاشهر الستة الماضية بدأ المعهد ابحاثه في موضوع المصورين الفوتوغرافيين الأرمن في منطقة الشرق الأوسط لتنظيم معرض خاص بأعمالهم.

حملة تزوير في المنطقة

من يرد ان يستثمر ويقتني أعمالا فنية ينبغي ان يكون هناك من يقدم له نصيحة على القيمة الحقيقية للعمل الفني، فهل ما يحصل في مزادات المنطقة يتوافق مع هذه النصيحة؟

الجواب يأتي نفيا قاطعا من الفنان العراقي وهو لا يخفي اعتقاده ان ما سينتج عن هذا هو شيء من الهوس. ويعطي أمثلة كثيرة. مثلا، هناك عمل فني يسمى طباعة ويباع في أوروبا بحوالي ألفي جنيه، في حين انه في المعرض الأخير في دبي حصلت منافسة على النموذج المعروض وكان العائد منه في المزاد (36 ألفا). وهذا في رأيه هو نتيجة الجهل. ويستدل بأمثلة كثيرة اخرى تدلل على وجود ما يصفه بحملة تزوير مخيفة بالأخص في جانب بيع الفن العراقي، وذلك نتيجة للجهل به، فكثير من الناس لا يملكون معرفة بهذه الامور ولا يوجد عندهم خبراء.

ويدلل على ان أسعار الاعمال المعروضة في هذه المزادات لا تدل على نجاح الفنان وان هناك أسبابا كثيرة معروفة للاسعار التي نجدها في هذه المزادات وهي لا تتطابق مع السوق لأن سعر اللوحة الفنية يحدده السوق نتيجة خبرة الفنان ومستوى العمل، وليس الفنان نفسه. ثم هناك فرق كبير بين ما يحصل عندنا وما يحصل في المجتمعات الاخرى، مثلا، الفنان اللبناني الراحل شفيق عبود، عاش في باريس وكان معه فنان هندي ينتج في نفس الفترة ويبيع أعماله بنفس الاسعار لكن الآن صارت اعمال الفنان الهندي تباع بحدود ثلاثمائة ألف، في حين ان أعمال شفيق عبود لو عرضت للبيع بعشرين او ثلاثين ألفا لحصل اعتراض على السعر. والسبب هو ان الجالية الهندية في الخارج وكذلك المجتمع الهندي الذي حقق النجاح في بلده لديه احساس بالتزامه بجمع تاريخه وثروته فصار يقتني ويزايد على أعمال الفنانين الهنود.. والسبب هو عدم وجود مؤسسات مالية لدينا تستثمر في هذا الجانب ولا توجد عندنا متاحف خاصة بالفن العربي الحديث.

والمسألة كلها اكتشاف الجديد وليس هوس أسماء. فلا يمكن ان نختصر تاريخنا بشيء له علاقة بمنطقة معينة من التاريخ. فهناك ثقافة ومعرفة هائلة في حضارات منطقتنا. ولو زار أحد هؤلاء متحف القاهرة واطلع على مجموعة توت عنخ أمون وحدها لأدرك ان ما صمموه قبل آلاف السنين من نعال لتوت عنخ آمون لا يزال مثل أي عمل فني موجود الآن. نحن بحاجة الى المعرفة لنبني متاحف ولنبني مجاميع فلا يمكن ان تنبني مجموعة

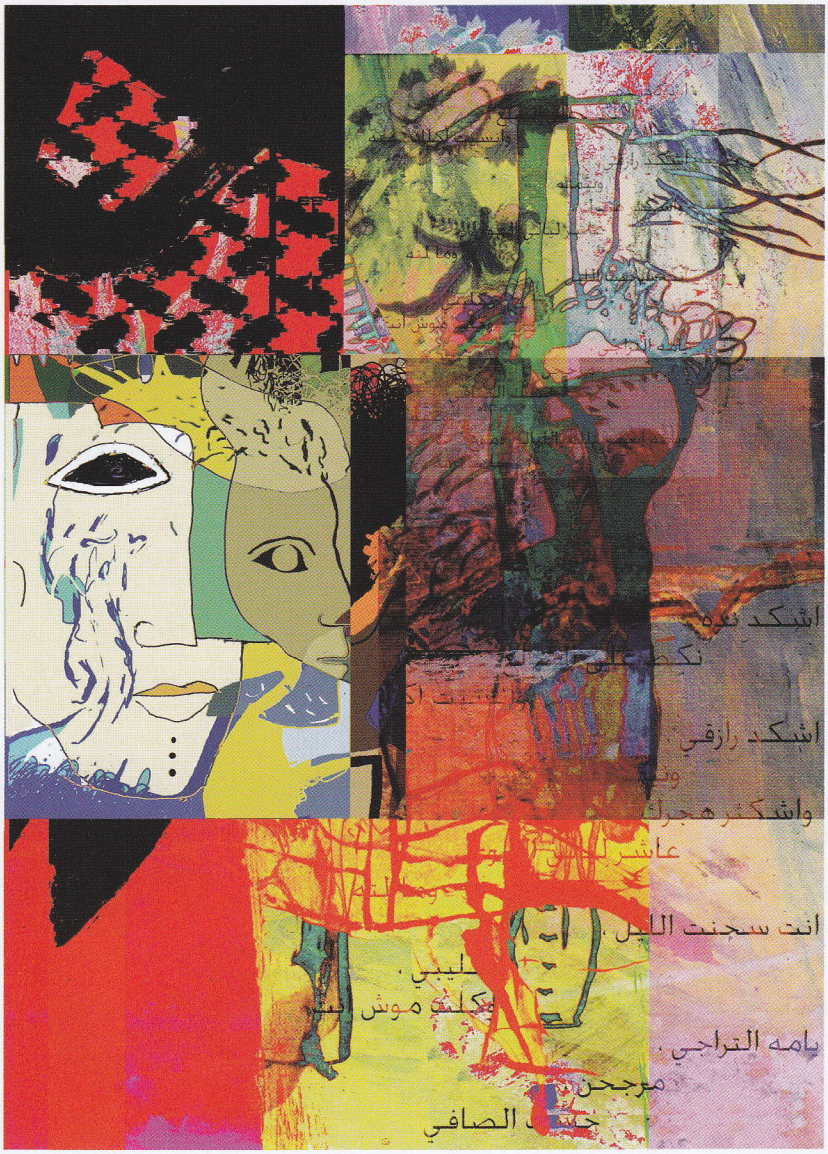

نتيجة هوس شخصي، ومع انه يمكن لصاحب المال ان يقتني ما يريد لكن على المدى البعيد وخلال عشر او عشرين سنة سيجد ان خمسا أو ستا في مجموعته هي الأساسيات ومقتنياته الاخرى في المجموعة لا تعني شيئا في الجانب المعرفي وليس في الجانب المالي منه.

كتاب مظفر النواب

التقليد الأوروبي

التغيرات في اعمال العزاوي بدأت بعد عام من انتقاله الى لندن، حيث نفذ مجموعة رسومات بعنوان المعلقات السبع وهي مجموعة كلاسيكية لكنه حاول تحويلها الى شيء له علاقة خارج الكتاب وذات علاقة بالحياة اليومية الموجودة. بمعنى انه ليست الألوان وحدها هي التي تغيرت في رسوماته <

قصيدة المتنبي

وانما انفتحت له بوابة كبيرة للمعرفة بأن المفهوم التقليدي للرسام لا يعني ان مهمته إنتاج اللوحة فقط وإنما ان يكون فنانا وهي كلمة أوسع من كلمة الرسام. فالفنان له مساهمة يومية بالحياة اليومية. مثلا، الناشر الفرنسي الذي سبق ان نفذ له الفنان لوحات طلب أن يعمل له طقم كامل للمائدة من أدوات الطعام، وهو ينوي نشر نسخ محدودة منها. وهذه التجربة يعتبرها الفنان نتيجة أساسية لتطوير معرفته وبعد ان كان عمله في السابق محصورا في تنفيذ لوحات في الغرب فهو اليوم يصمم وينفذ كل شيء وحتى الأثاث، ويقول ان هذا التقليد هو تقليد أوروبي موجود، فمثلا، المعمارية العراقية زهاء حديد تصمم وتعمل أثاثا وهي صممت أجمل أباريق الشاي العصرية، كل هذا نتيجة معرفتها الواسعة. لكن المعماريين المهتمين بهذا الجانب عندنا قلة. وعن الموضوعات الاخرى التي تشغل ذهنه حاليا يقول انها موضوعات متعددة من الناحية الفنية وهي في جانب منها تتعلق بما يحدث في المنطقة بوجه عام. ويذكر انه منذ سنوات الحصار الاقتصادي على العراق عمل مع مجموعة بالتعاون مع فنانين شباب لتنفيذ عمل وفق مفهوم أسميه الدفتر، وهو مفهوم موجود في اوروبا والفرنسيون عندهم تجارب كثيرة فيه لكنها محصورة في الطباعة.

وتجاربه مع نسخة واحدة من كتاب يوثق فترة سياسية مرت بها المنطقة، وهو كان بالاتفاق مع فنانين في بغداد، عملوا في البداية شيئا عن الحصار وبعد دخول العراق فترة الاحتلال نفذوا ايضا أعمالا عما حدث في بغداد. وعنده أعمال معروضة حاليا في نيويورك وهو يعتبرها اكبر أعماله ولو انه ليس هناك في المنطقة من يدري بها. كما حاول ان يأخذ أعمالا من فنانين موجودين في السويد ونيوزيلندا، بحيث ان عمله يشكل توثيقا لعمل هؤلاء الفنانين الذين ما زال على علاقة بهم. وهناك محاولة مع فنانين أصدقاء في مناطق مختلفة في العالم لإقامة معرض يدين مشروع دول الطوائف والاقتتال الموجود. لكن في الوقت الحاضر لا يوجد شيء أساسي سوى إدانة الجانب الطائفي في البلد. ويرى ان الشرارة التي خلقها الاحتلال للحرب الأهلية او تحويل المشروع الى مشروع قتال ديني طائفي هو الذي سيدمر المجتمع العراقي بل وسيدمر المنطقة بوجه عام، ما لم يظهر في موقف واضح لرفض هذا المفهوم ■

بروفايل

مرسم الفنان ضياء العزاوي في هايغيت

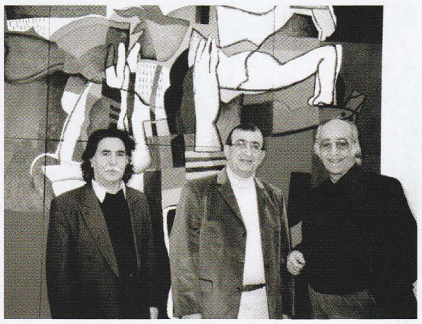

من معرضيه: في دمشق (أعلى) والكويت (في الأسفل)

مع الشاعر الجواهري